من أجل كلمة !

(الخلاف بين مارى أنطوانيت ومدام دى بارى)

طالت المنافسة بين الأسرتين القديمتين ، أسرة الهابسبرج وأسرة البوربون ، على السيادة الأوربية ، وانتشبت بينهما الحروب ، واحتدمت الملاحم فى ميادين السياسة وساحات الوغى ، حتى أثخنتهما الجراحات ، ونال منهما الكلال والإعياء ، وفى اللحظة الأخيرة أدرك الخصمان العنيدان أن هذا الصراع العنيف لم يعد عليهما بطائل ، وأنه مكن الأسرات الناشئة من الظهور والاعتلاء . وخطر ببال ذوى الرأى من أمراء الأسرتين أن الاتفاق بينهما و إزالة أسباب الخلاف خير من التمادى فى الخصومة العقيمة و إذ كاء النيران القديمة . ولمح السياسيون وميض هذه النزعات ، فأخذوا يعملون على تحقيق هذه الرغبة ، وكان فى طليعتهم السياسى النمساوى الخطير كونتز والسياسى الفرنسى القدير شوازيل ، وكان الأول مستشار الملكة ماريا تريزا ، والثانى كان صاحب الكلمة المسموعة والرأى المتبع فى بلاط الملك لويس الخامس عشر .

ولكى يزداد الاتفاق بين الأسرتين قوة ودواما اتفق الرأى على أن يتزوج ولى عهد فرنسا وحفيد الملك لويس الخامس عشر الأميرة النمساوية

مارى أنطوانيت ، وتمت مراسيم العقد وحفلات الزواج فى سنة ١٧٧٠ .

وعند مجىء الأميرة مارى أنطوانيت إلى بلاط فرساى كانت الملكة قد ماتت منذ عامين ، وكان المنظور أن ينتقل نفوذها إلى بناتها الثلاث كريمات الملك لويس ، وهن مدام أدلييد ومدام فيكتوار ومدام صوفى ، ولكنهن لم يكن راجحات العقل ساميات اللب ، بل كن على النقيض قصيرات الرأى مملات حاقدات ليس لهن أى تأثير على والدهن المتهالك على اللذات الحسية والشهوات الوضيعة ، ولم يرهب أحد مكانتهن ، ولم يرج إنسان نفعهن ، ولذا هان أمرهن على الناس ، وضعفت مكانتهن . وكانت مدام دى بارى آخر حظيات الملك لويس فى أوج مجدها وقمة نفوذها ، وقد وقع الملك فى قبضتها ، وأصبح زمامه فى يدها تصرفه كيف تشاء . وكان الملوك والأمراء والأعيان يغدقون عليها الهبات ويتملقونها ، ويتوددون إليها لأنهم يعلمون أنها تستطيع عزل الوزراء ومنح المناصب الكبيرة التى تدر المرتبات الضخمة ، وأن فى استطاعتها أن تبذر أموال الدولة وتبتنى القصور حين تشاء .

وساء نجاحها الوزير شوازيل فأخذ يكيد لها ، ويغرى بها الصحف والمجلات ، واتسع نطاق حملة التشنيع والهجاء فلم يثر ذلك غضبها ، ولما قال لها كبير الشرطة « لقد قبضنا يا سيدتى على رجل نذل يتغنى بأبيات من الشعر بذيئة نظمت فى هجائك ، فماذا تريدين أن نصنع به ؟ » أجابته « دعه يغنى لك هذه الأبيات ، وتصدق عليه بعد ذلك بشىء

يمسك رمقه » وأمعن الوزير شوازيل فى تحديها فأدالت نفوذه ، واقتلعته من منصبه ، وجعلته عبرة لغيره .

وقد استرعى وجودها فى بلاط فرساى نظر الأميرة مارى أنطوانيت من أول وهلة ، فسألت أحد رجال البلاط « ما وظيفة هذه السيدة ؟ »

فأجابها « وظيفتها إمتاع الملك » !

فقالت مارى أنطوانيت فى بساطة ملحوظة « إنى أستطيع أن أحل محلها »

ولكنها علمت فيما بعد عن هذه السيدة ما فيه الكفاية ، وكانت مجرد رؤية مدام دى بارى تحزن الأميرات بنات الملك وتثير نقمتهن . وكانت الفضيلة التى أكرهتهن الظروف على التعلق بها تدفعهن إلى التبرم بهذه الحالة ، وكان عملهن من الصباح إلى المساء هو نحت أثلة مدام دى بارى ، وقد بذلن جهدهن فى أن يحشرن مارى أنطوانيت فى زمرتهن.

وكانت التقاليد المرعية فى البلاط الفرنسى تقضى بألا يبدأ الصغير الحديث مع الكبير إلا إذا بدأ الكبير الحديث . وكانت مارى أنطوانيت تعد أكبر سيدات البلاط مقاماً ، لأنها حرم ولى العهد . وكانت مدام دى بارى تنتظر أن تسمع من بين شفتى الأميرة مارى هذه الكلمة . وكانت مارى تضن بتلك الكلمة . ونمى ذلك إلى علم الملكة ماريا تريزا ، فأوصت وزيرها كونتز أن يرسل إلى وزير النمسا المفوض فى فرنسا — مرسى — بأن يذكر مارى بواجباتها السياسية ، وأن ينصحها بإظهار

الرعاية لمن لهم مكانة عند الملك ، سواء كانوا جديرين بها أولا ، ولكن مارى ظلت ملتزمة سياسة الصمت .

وكانت مدام دى بارى تود أن تعترف بها مارى أنطوانيت وتشعر بوجودها ، وكبر عليها أن تتجاهلها هذه الفتاة الغريرة التى لا تكاد تجيد الحديث باللغة الفرنسية ، وأن تستهين بها ، وتجعلها أضحوكة لرجال القصر ومضغة فى أفواه الحاشية .

ولكن مارى ركبت رأسها ، ومضت فى سننها ، ولم تكن مدام دى بارى امرأة نكداء خبيثة شرسة ، أومطبوعة على الدس والإيقاع ، وإنما كانت امرأة طروبا لا يضمر قلبها السوء ، ولا يعرف الحقد ، وكانت مأنوسة المحضر ، محبوبة القرب ، غاية فى الملاحة والصباحة . وقد اتفق مرة أن زارت الوزير شوازيل لأمر من الأمور ، فلمحها الملك لويس ، وكان لا ينى يترقب فريسته ، ويطلب صيدا ، فاسترعى نظره جمالها الباهر وحركاتها الرشيقة ، وسعى وسطاء المسرات بينهما ، وكان الطريق معبداً ، فقبلت فى سرور وارتياح أن تشغل المكان الذى خلا بوفاة مدام دى بومبادور منذ سنوات ، وتطلعت إلى الفرائد والحلى ، وكانت بهما مشغوفة ، وأحبها الملك وفتن بها من أول لقاء لأنها لم تتكلف شيئاً ، ولم ترتد ثياب البراءة والقداسة لتتملقه ، وتترضى كبرياءه ، وإنما جرت على طبيعتها ، وكشفت له عن حقيقة نفسها .

وكانت مدام دى بارى تحب الاعتراف بقوتها ، والاستمتاع بمكانتها

السامية ، وأن تلبس أفخر الثياب وأغلى الجواهر ، وأن تكون لها العربات الفخمة ، التى تجرها الجياد المطهمة ، ولم يضن عليها أسير هواها بشىء من ذلك ، فقد كانت عنده مستجابة الدعوات ، ملباة المطالب .

وتحلق رجال القصر وسيدات البلاط حول ميدان هذه المعركة المسلية القائمة بين المعتصمة بالصمت الشامخة المتعالية ، والأخرى التى يكاد يستطيرها الغضب وتنفجر الدموع من عينيها ، فأيتهما تكسب المعركة ، وتنتصر فى النهاية ، ولية عهـد فرنسا وملكتها المقبلة ، أو حظية الملك وفاتنة لبه ؟

لم تشهد فرساى مثل هذه المعركة منذ سنين . ولما اشتدت الحالة ، وتعقدت الأزمة ، اهتم الملك اهتماماً جدياً بالموضوع ، وكان قد تعود أن يطاع بمجرد الإشارة ، ولكنه لقى معارضة لأول مرة من فتاة ناشئة بلهاء .

وكانت الخطة الواضحة القريبة أن يدعو إليه هذه الفتاة الشموس الحرون ، وأن يفاتحها فى الأمر ، ولكن حتى هذا الساخر اللاهى السادر فى لذاته كان فيه بقية من التردد ومراجعة النفس ، فلم يجترئ على أن يأمر زوجة حفيده أن تتواضع وتخاطب عشيقته ، فحول المسألة إلى الناحية السياسية ، واستدعى السفير النمساوى — مرسى — عن طريق وزارة الخارجية ، وحضرت الاجتماع مدام دى بارى ، وأوضحت للسفير أن مارى أنطوانيت قد أساءت معاملتها ، وأنها لا تنطوى لها إلا على الإخلاص والتقدير . وحار السفير فى الأمر ، وتكلم كلاماً غامضاً ، وتحدث الملك فى صراحة

عن مارى أنطوانيت ، فقال إنها صغيرة السن ، متوثبة الروح ، وأنها تزوجت من رجل لم يستطع أن يسيطر عليها ، وأنها أصبحت ألعوبة فى يد عصبة من مستشارى السوء ، وأشار عليه أن يبذل جهده ، ويستعين بنفوذه لحمل مارى على تعديل سلوكها . وقدر « مرسى » خطورة الموقف ، وأرسل إلى بلاط فينا رسالة مسهبة أوضح فيها بلمسات لطيفة من ريشته أن مدام دى بارى لا تريد إلا ترضية يسيرة ، وهى أن تخاطبها ولية العهد بكلمة أمام الناس . وقبل أن يتلقى الرد زار مارى أنطوانيت وخاطبها فى الأمر ، ومزج حديثه بشىء من التهديد ، وأشار إشارة خفية غامضة إلى السم الذى كان يستعمل فى البلاط الفرنسى للخلاص من كل شخص فى مكانة عالية غير مرغوب فى بقائه ، وصارحها بأن مثل هذه المسألة قد تحدث صدعاً فى العلاقات بين الهابسبرج والبوربون ، وتفسد ذلك الاتفاق الذى رمت إليه والدتها وجعلته هدف حياتها وأساس سياستها .

وأخاف هذا الحديث مارى أنطوانيت ، وأثار شجونها ، فوعدته بأنها ستقول تلك الكلمة فى وقت قريب ، فخرج فرحاً مسروراً معتقداً أنه قد وفق فى معالجة المشكل وإزالة أسباب الخلاف .

وذاع فى القصر أن مارى أنطوانيت ستنطق بالكلمة المنظورة فى ختام إحدى الحفلات المسائية . واتفق على أن يبدأ السفير الحديث مع مدام دى بارى ، ثم تجىء وليـة العهد وتتحدث إليه ، ثم تنتقل من الحديث معه إلى مخاطبة مدام دى بارى بالكلمة الموعودة . ورتب الأمر

ترتيباً دقيقاً ، ولكنه لم ينفذ ، وخاب المسعى . وذلك لأن الأميرات كريمات الملك تدخلن وأبين أن تنتصر مدام دى بارى عدوتهن انتصاراً علنياً ، فلما أقبلت مارى على البهو وأخذت تنثر التحيات ، وتوزع الابتسامات ، وكانت تطيل الحديث عمداً مع بعض الحاضرين ، وكادت تتم الدورة ، ولم يبق بينها و بين «مرسى» ومدام دى بارى إلا سيدة واحدة ، وإذا بمدام أدلييد تسرع إليها فى اللحظة الحاسمة — وكانت أشد بنات الملك حقداً على مدام دى بارى — وقالت لها بلهجة الآمرة : « لقد حان ميعاد الانصراف ، وسنذهب إلى مخدع شقيقتى فكتوار لننتظر قدوم الملك » وكانت مفاجأة لمارى أطارت صوابها ، وأفقدتها شجاعتها ، ولم تسعفها البديهة بشىء تخاطب به مدام دى بارى ، فعادت أدراجها مرتبكة غير عالمة بما تفعل ، ولم تنطق بالكلمة الموعودة ، وفسد التدبير وساء الموقف ، وتحرجت الأزمة ، وطرب النافخون فى الشر ودعاة الفتنة ، وغضب لويس الخامس عشر لغضب حظيته ، وقال للكونت مرسى بمرارة : « يظهر أنك لم تصنع شيئاً ، ولا بد أن أسعفك وأعينك » . واشتد غضب مدام دى بارى ، وتداعت أركان الاتفاق بين النمسا وفرنسا ، واستهدف سلام أوربا للخطر ، وأخطر السفير البلاط النمساوى بخطورة الأمر ، وفداحة الخطب ، ولم يبق إلا أن تتدخل ماريا تريزا بنفوذها ، لأنها هى الوحيدة التى كانت تستطيع كبح جماح هذه الثائرة ، واضطربت الملكة وساورها القلق ، وقد حرصت فى بادئ الأمر على أن تبعد ابنتها عن

المسائل السياسية ، وتجنبها مزالقها ، لانها كانت تعلم سوء أحوال فرنسا الداخلية ، ولا تود أن تحمل ابنتها أوزارها ، وفضلا عن ذلك كان يشغل بالها أمر هام ، وهو تقرب فردريك الأكبر ملك بروسيا وكاترين الثانية الروسية من البلاط النمساوى ، وكانت هى تكره فردريك وتخشى شره ، ولا تثق بالملكة كاترين ، وكانا يرميان من وراء التقرب من النمسا إلى استدراجها إلى الاشتراك فى تقسيم بولندة ، وقد استطاعا أن يجتذبا إلى رأيهما السياسى كونتز والملك جوزيف ابنها ، ولم يكن ضميرها مطمئناً إلى هذا التقسيم المشئوم لاعتقادها أنه عمل ظالم ، وأنه جريمة منكرة ، وساءها أن يرضى ذلك ابنها الطموح ، وأن يؤيده ويشد أزره صنيعتها كونتز الذى رفعته من الحضيض ، وأنالته المجد والسلطة . وكانت تشعر بخيبة أمل شديدة ، وتود أن تعتزل الملك ، لولا شعورها بالتبعة الملقاة على عاتقها ، وخوفها على مصير الإمبراطورية . وكانت قد اضطرت إلى إقرار الاتفاق اضطراراً لإلحاح ابنها وشدة ضغط وزرائها ، وكانت تتساءل هل يرضى هذا الاتفاق فرنسا ؟ وهل يرتاح له لويس الخامس عشر بعد عقد الاتفاق بين البوربون والهابسبرج وتوثيق العلاقات بينهما ؟

ووافاها كتاب «مرسى» وهى تعانى هذه الحالات ، وتفكر هذا التفكير وعلمت من الكتاب أن الملك لويس جد مستاء ، وأنه أظهر استياءه للسفير النمساوى . والآن بسبب امتناع مارى أنطوانيت عن التحدث إلى مدام دى بارى قد يثير تقسيم بولندة أزمة سياسية ويجر إلى الحرب ،

وإذا كانت الأم قد ضحت بضميرها من أجل السياسية فهل تظل ابنتها ملكية أكثر من الملك ، ومحافظة على التقاليد أكثر من أمها ، وتمتنع عن مخاطبة حظية الملك ؟

بادرت الملكة ماريا تريزا إلى إرسال كتاب إلى مارى أنطوانيت أشد لهجة ولم تشر فيه بطبيعة الحال إلى مسألة تقسيم بولندة أو غير ذلك من شؤون الدولة ، وإنما ذكرتها بأن من واجباتها ارضاء الملك ، والخضوع لمشيئته ، وليس فى الأمر ما يمس الشرف ، ويزرى بالكرامة ، ولا تطلب المسألة أكثر من كلمة عابرة ، وابتسامة بسيطة لتسوية الموقف وتصفية الجو .

فخضعت مارى أنطوانيت ولان عصيها ، فقد كانت على عصيانها وتمردها لا تجسر على مخالفة أمها ، فصممت على التسليم ، وقبول الأمر الواقع .

وفى اليوم الأول من سنة ١٧٧٢ ظهر أثر ذلك التصميم على التسليم وإلقاء السلاح ، وانجلاء الموقعة عن انتصار مدام دى بارى ، وأعد المسرح لشهود الحادثة ، واجتمع النظارة من رجال البلاط ونسائه ، ومرت سيدات البلاط على ولية العهد ، ومن بينهن مدام دى بارى ، وحبس الجميع أنفاسهن ليسمعن الكلمة الموعودة ، فلما جاء دور مدام دى بارى حولت الأميرة وجهها إلى ناحيتها وقالت لها « فرساى اليوم حافلة بالناس » ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، وكان لهذه الكلمة التافهة وقع

فى الدوائر السياسية ، والبلاطات الأوربية ، فقد خاطبت وليـة العهد حظية الملك ، فحقنت الدماء ، وتحسنت العلاقات المتوترة بين فرنسا والنمسا ، وزالت العاصفة ، وصفا الجو ، وعانق الملك ولية العهد ، وشكرها الكونت مرسى متأثراً متهدج الصوت ، وتخطرت مدام دى بارى فى أبهاء فرساى تخطر الطاووس ، واشتد حقد الأميرات كريمات الملك ، وهاج البلاط وماج ، وهزمت مارى أنطوانيت ، وانتصرت مدام دى بارى .

وفى الحق أن هذه الـكلمة التافهة التى أرسلتها مارى أنطوانيت كانت بعيدة الأثر ، كانت هذه الملاحظة العابرة هى الخاتم الذى طبعت به جريمة سياسية من جرائم التاريخ الكبرى ، وكانت الثمن الذى تقاضاه الملك لويس الخامس عشر ليقبل تقسيم بولندة . ولأول مرة قبلت مارى أنطوانيت الهضيمة ، واعترفت بالهزيمة ، وخفضت رأسها الأشم الذى لم ينحن بعد ذلك إلا أمام المقصلة .

قالت الأميرة مارى بعد ذلك لمرسى « لقد ألقيت إليها هذه المرة بهذه الكلمة ، ولكنها لن تسمع صوتى مرة أخرى ، وصارحت والدتها بذلك ، وعبثاً حاول مرسى والملـكة ماريا حملها على تغيير هذا السلوك ، ولم يجد معها الإرهاب ولا الترغيب .

ولم تكن مدام دى بارى حاقدة على مارى أنطوانيت ، وإنما كانت مجروحة الإباء ، وقد التمست هذه الترضية البسيطة لتضمد جراحها . وخجلت بعد ذلك من انتصارها ، وكانت تعلم جيد العلم أن قوتها قائمة

على قواعد غير مكينة ، فقد كان سيدها الملك متقدماً فى السن ، وقد تودى بحياته نوبة من نوبات الصرع ، وتصبح مارى أنطوانيت ملكة فرنسا ، وتستطيع إرسالها إلى سجن الباستيل ، وكانت تتحرى بعد ذلك أن تظهر فى اجتماعات القصر المسائية ، وكانت مارى تتعمد إهمالها ، وهى تحتمل ذلك صابرة ولا تظهر ضجراً ولا حقداً ، وكانت ترسل لمارى التحيات التى تعبر عن ولائها و إخلاصها . وحاولت اجتذاب رضاها بإطرائها عند الملك ، ولما لم يصلح ذلك كله فكرت فى أن تقدم لها هدية ثمينة ، وكانت تعرف ولوعها باقتناء كريم الجواهر ، وثمين الحلى ، وكاشفت إحدى الوصيفات بذلك وكلفتها إبلاغ الأمر لمارى أنطوانيت ، فلم تتنازل مارى إلى الرد عليها ، فقد صممت على الترفع عن مخاطبة المرأة التى أذلتها علانية ولو قدمت لها جواهر الأرض جميعها . وما حاجتها إلى كريم الجواهر ونفيس الحلى وهى ستلبس عما قريب تاج فرنسا الذهبى ؟ وتعزت مدام دى بارى عن ذلك بقولها « ولية العهد تأبى مخاطبتى ، ولكن لا بأس لقد ملكت كل شىء غير ذلك » .

وقد جمع بينهما القدر بعد ذلك فى وحدة المصير المحزن ، فكلتاهما ماتت تحت المقصلة ، وذهبت ضحية الثورة الحاطمة .